



**"من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية، في فكر
القاضي عياض"**

**"Among images of the integration between the
sciences of Principles of jurisprudence and Arabic
rhetoric, in the mind of KADI AYYAD"**

د. البشير العوني

elbachirelaouni@hotmail.fr

جامعة القاضي عياض - مراكش

تاريخ القبول: 2020-07-06

تاريخ الإرسال: 2018-08-04

الملخص:

يدرس هذا المقال موضوعاً سجّلت الكتابات الحديثة اهتماماً بالغاً به، وهو موضوع التكامل بين العلوم والمعارف، في تركيز على صورة خاصة منه، وهي التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية، كما هو متجّل عند القاضي عياض في مصنّفه «بغية الرائد»، حيث أكّد هذا البحث أن مفهوم التكامل بين العلوم من أهم المفاتيح التي يمكن أن يتحقق بها تطور وتقدّم العلوم، ثم هو يعكس حاجة الإنسان في فهمه لعلم معيّن إلى أن يوسع من نظرتة إلى العلوم المحيطة به.

الكلمات المفتاحية:

القاضي عياض - أصول الفقه - البلاغة العربية - التكامل بين العلوم



Abstract:

This article examines a subject in which recent writings have attracted great interest, and which is the subject of integration between science and knowledge, focusing on a special image of it, which is the integration of the sciences of jurisprudence and rhetoric, as illustrated by KADI AYYAD in his work «BOGHIATE ARRRAID», this research underlined that the concept of integration between sciences is one of the most important keys for the development and progress of science, and it also reflects the human need in understanding a specific science to broaden its vision to include the science around it.

Keywords:

Integration between the sciences; Principles of jurisprudence; arabic Rhetoric; KADI AYYAD

المقدمة:

إنّ التكامل بين علمين لا يعني أنّهما ناقصان في ذاتهما، بل من شروط «التكامل بين العلوم» أن تكون العلوم الموظفة فيه قد حققت في البحث النضج اللازم، وفي العلم المستوى المطلوب من حيث الأدوات والمناهج والقواعد والمقاصد، وذلك شرطٌ حتى تكون نتائج عملية التكامل أقرب إلى الصحة وأدنى إلى الحقيقة العلمية، ثم إن مبدأ «التكامل بين العلوم» يستلزم كون هذه العلوم تشترك في جوانب علمية مسوّغة لهذا التكامل، وهذه الجوانب هي التي تمنح إمكانية التقارب بينها، فلا يقول قائلٌ إن التكامل قد يحصل بين العلوم كافة على اختلافها وتنوع مجالات انتمائها.

فالعلوم هي بمثابة دوائر هندسية تشتمل كل واحدة منها على مجموعة من المعطيات العلمية، وهذه الدوائر - حال التكامل - تُرى غير مستقلة في ذاتها، بل



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
تتقاطع مع صواحبها، لتشكل مجموعها شكلاً هندسياً يحقق غاية ومقصداً، وهذا التقاطع هو بمنزلة الجزء الذي تتعاور العلوم العمل عليه فيما بينها، ويحد هذا التقاطع نفسه حتمياً في استكمال كل دائرة قرصها المحيط بحدودها والمبين لعتباتها.
يقول فتحي حسن ملكاوي في تعريف «التداخل بين العلوم»: «يعني أن علماً معيناً يحتاج إلى أن يتداخل مع علم آخر أو أكثر من أجل تطويره وتقديمه، أو يعني حاجة الإنسان في فهمه لعلم معين إلى علوم أخرى يعين في تحقيق هذا الفهم»¹، فالملاحظ أن الجانب الأبرز في هذا التعريف هو ما يشير إليه من الغاية التي يرمي إليها التداخل بين العلوم، فالتعريف ينوّه بمسألة أن التداخل بينها هو ذو طابع حاجي، أي إن كل علم يحتاج إلى علم آخر لتحقيق غاية علمية أو معرفية ما، فلا يمكن لعلم أن يصل - بناءً على هذا التعريف - إلى أهدافه وغاياته دون الاستعانة بعلم آخر، وأن يستمد منه بعض ما بني عليه من القواعد والأصول، وما يستثمره من الأدوات والآليات، وما ينتجه من المعطيات والتجارب، ولا يمكن أيضاً لعلم أن يكون في ذاته وحدة مستقلة جامدة لا تشتغل مع علوم غيرها، ولا توكل إليها وظائف تكشف عن حقيقة أنها علم خادم، وإلا فإن اعتباره علماً سيكون فيه نظر من الأساس، فلا يوجد في مجال العلوم الإنسانية علومٌ نافلة أو معارفٌ فضلة.

فتداخل العلوم هو من بين المحركات الأساسية التي تدفع بعجلة تطورها، وإلا فإنها في حال انعزالها واستقلالها ستجد نفسها علوماً ميتة، لا طائل من البحث فيها، ولا فائدة من الرجوع إلى مباحثها، ولذلك نجد التعريف ينبه على أن

¹ - ملكاوي، فتحي حسن، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (1434هـ=2012م)، ص (57).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
التداخل بين العلوم هو بمنزلة المحرك الذي يوصل العلوم إلى الغاية التي تطلبها
بصورة كاملة ولأثقة، تسعى في أسمى مقاصدها إلى تقدمها وتطورها.
ثم وصل التعريف إلى أن يشير إلى مسألة أنه من اللازم على الباحث إذا أراد
أن يقف على حقيقة علم تداخلت علوم أخرى في تشكّله وبناءه أن يصوّب نظره
تلقاء هذه العلوم المشكّلة إذا أراد أن يصل إلى الفهم الصحيح، وأن يستثمرها
استثمار متمكّنًا ومبنيًا على أسس متينة، وإلا كان الأمر اجتثاثًا للعلوم من
سياقاتها، وخروجًا بها عن قواعد البحث الصحيح، فـ«أهم ما يقتضيه مفهوم
التكامل المعرفي بين علوم الإسلام... الانتباه إلى حالة نشأة كل علم من تلك
العلوم وبيان روافده المعرفية وكيفية تشكّله ضمن تاريخ العلم، وتكامله مع غيره
من العلوم القريبة أو المساعدة»¹.

أورد الباحثون في مجال التكامل بين العلوم مجموعةً من النصوص عن العلماء
القدماء يتحدثون فيها عن هذا المفهوم، إلا أننا اخترنا أن نمثل بنص يقترب من
وصف العلاقة بين علم البلاغة خاصة في تكاملها مع علوم أخرى، من بينها علم
أصول الفقه، يقول أبو يعقوب السكاكي (626هـ) في كتابه «مفتاح العلوم»:
«ثم مع ما لهذا العلم يعني علمي المعاني والبيان من الشرف الظاهر والفضل
الباهر لا ترى علما لقي من الضيم ما لقي ولا مني من سوم الخسف بما مني، أين
الذي مهد له قواعد، ورتب له شواهد، وبين له حدودا يرجع إليها، وعيّن له
رسوما يعرج عليها، ووضع له أصولًا وقوانين، وجمع له حججًا وبراهين، وشر
لضبط متفرقاته ذيله، واستنهض في استخلاصها من الأيدي رجله وخيله، علم تراه

¹ - الصغير، عبد المجيد، مقال: إشكالية مفهوم التكامل المعرفي في الإسلام: بنيتها وتحليلاتها، مجلة
الواضحة، العدد (6)، (1432هـ = 2011م)، ص (262).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العويني
أيادي سبأ، فجزة حوته الدبور، وجزة حوته الصبا؛ انظر باب التحديد فإنه جزء
منه في أيدي من هو، انظر باب الاستدلال فإنه جزء منه في أيدي من هو بل تصفح
معظم أبواب أصول الفقه من أي علم هي ومن يتولاها، وتأمل في مودعات من
مباني الإيمان ما ترى من تمنها سوى الذي تمنها، وعد وعد، ولكن الله جلت
حكمته إذ وفق في تحريك القلم فيه عسى أن يعطى القوس باريها بحول منه عز
سلطانه وقوته، فما الحول والقوة إلا به ¹.

قامت فقرات هذا المقال مبنية على محاولة البحث في صورة من صور
التكامل بين علمي الأصول والبلاغة، كما هي متجلية في فكر علم من أعلام
المغرب الأقصى، وهو أبو الفضل القاضي عياض السبتي (545هـ) ²، وذلك كما
تجلى في كتاب له موسوم بـ: «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد»،
لكن قبل ذلك حاولنا أن نقف قريبا من إبراز طرفٍ من الجانب الأصولي في فكر

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، ط (2)، دار الكتب
العلمية، بيروت، (1407هـ = 1987م)، ص (422).

² - عياض بن موسى اليحصبي الأندلسي، ثم السبتي، تبخر من العلوم وجمع وألف، وهو من أهل
العلم والتفنن والذكاء والفهم، وإمام الحديث في وقته، وأعرف الناس بعلمه، وبالنحو واللغة
وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، له كتاب «الشفاء في شرف المصطفى»، وكتاب «ترتيب المدارك
وتقريب المسالك في ذكر فقهاء مذهب مالك»، وكتاب «شرح حديث أم زرع»، وكتاب
«مشارك الأنوار في اقتفاء صحيح الآثار»، توفي سنة (544هـ).

انظر ترجمة مفصلة عنه في: ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة،
ط (2)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (1982م)، وابن بشكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم
الأيباري، ط (1)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت
(1410هـ = 1989م) (660/2).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
القاضي عياض، محاولة لإثبات مدى قدرته على فتح مسائل وقضايا علم أصول
الفقه على علوم أخرى ليستفيد منها ويفيدها، خدمةً للمقصد الذي من أجله
وضعت قواعد أصول الفقه في الشريعة الإسلامية، وكذلك مراعاة للمسائل المنفتح
عليها من العلوم، بما تتضمنه من سياقات علمية ومعرفية خاصة، وذلك إيماناً بأن
كل اجتهاد في باب من أبواب التكامل بين علمين أو أكثر، لا بد من أن يصاحبه
إحاطة بمحمل القضايا والمفاهيم والآليات والمناهج التي تطرق من قبل هذه العلوم.¹

1 - القاضي عياض أصولياً

أول لقب يمكن أن يتبادر إلى ذهن الباحث إذا ما نظر إلى التراث العلمي
الذي خلفه القاضي عياض هو لقب الفقيه الأصولي، وقد قامت مجموعة من
الدراسات والأبحاث الحديثة على رصد هذا الجانب الفكري عنده، والوقوف
بالبحث على تجلياته المختلفة تنظيراً وتطبيقاً²، وذلك بأن أكدت هذه الدراسات في

¹ - نشير إلى أننا لم نرجع على الحديث عن الجانب البلاغي في فكر القاضي، في إشارة إلى أنه لم
يكن غالباً على اهتماماته، لكن الفصل الذي عقده في كتابه "بغية الرائد" والذي سماه "بيان"
يعطي إشارة كافية حول مشاركته في علم البلاغة، وطبيعة هذه المشاركة، لذلك نحيل القارئ إليه
اكتفاءً به.

² - من جملة هذه التأليف:

- بنوار، محمد، القاضي عياض وأثره في الدراسات الأصولية، دبلوم الدراسات العليا، كلية
الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، (1995م).

- شواط، الحسين، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ط(1)، دار القلم،
دمشق، (1419هـ=1999م).

- العمري، صالح، إجماعات القاضي عياض في الفقه الإسلامي، دكتوراه، كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، (1418هـ=1998م).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
محملها على أن الجانب الأصولي في فكره يظهر في صورة جملة من المعالم التي ساقوا
من بينها:

- كلام المترجمين لسيرته، الذين أشاروا إلى رسوخه في علم الفقه وأصوله،
وذلك في كثير من النصوص التي أوردها أصحاب السير والتراجم في تصانيفهم، من
ذلك قول ابن فرحون (799هـ): «كان القاضي أبو الفضل إمام وقته في الحديث،
وعلموه، عالما بالتفسير وجميع علومه، فقيها أصولياً...»¹، وقال محمد ابن القاضي
(575هـ): «كان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومشكله ومختلفه،
أصولياً متكلماً، بصيراً بالفتيا والأحكام...»².

- تراجم العلماء الذين تتلمذ عليهم القاضي عياض وأخذ عنهم الفقه
وأصوله، وقد أورد طائفة منهم في مصنفه «الغنية: فهرست شيوخ القاضي
عياض»، وذلك حينما قال: «فقد تعيّن بحكم إلحاحكم عليّ، ومدّكم أيدي
الرجبات إليّ، أن أسمي أشياخي الذين أخذت عنهم قراءة وسماعاً، ومناولة وإجازة،
ومن كتب إليّ ممن لم ألقه وذكرت من خبر كل واحدٍ منهم ما يعطي الحال وفقه،
بطرفٍ من الاختصار والإيجاز»³، فكان من بين كبار شيوخه: محمد بن عيسى
التميمي (505هـ)، قال عنه القاضي: «لازمته للمناظرة في المدونة وسماع

¹ - ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحدي أبو
النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت، (47/2).

² - ابن القاضي عياض، محمد، التعريف بالقاضي عياض، مرجع سابق، ص(4).

³ - القاضي عياض، الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط(1)، دار
الغرب الإسلامي، (1402هـ=1982م)، ص(25).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
المصنفات، فقرأت وسمعت عليه بقراءة غيري كثيرًا¹، ومنهم أبو بكر الطرطوشي
(520هـ) وأبو الوليد بن رشد (520هـ) وأبو علي الصدي (514هـ) وآخرون.
- مؤلفاته التي حوت أبحاثه الفقهية والأصولية كـ«إكمال المعلم»
و«التنبيهات المستنبطة»، أو ما تضمن الإشارة إليها دون بسط الكلام فيها
وتحريره، كـ«الشفاء» و«الإعلام بحدود قواعد الإسلام» وغيرها.
- الكتب الفقهية التي درّسها وناظر فيها كالموطأ والسنن والمدونة ورسالة
ابن أبي زيد وغيرها²، فهي وإن كانت كتباً في فروع الفقه، إلا أنها لا تخلو من
مناقشات أصولية مهمّة.
- مناقشته ونقده للمسائل الأصولية، التي يبدي فيها عن حس علمي رصين
في النقد، وقدم راسخة في الاطلاع والتتبع لمذاهب من تقدمه من الفقهاء
والأصوليين³.
- تقريره مذهب مالك واختياراته وأصوله وعمله، وتأويله لبعض الأدلة،
والرد على من خالفه، ومثال ذلك ما ورد في «إكمال المعلم» من المناقشات
الأصولية والفقهية⁴.
- فتاواه في النوازل الفقهية التي كانت تعرض عليه، والتي كان يتكئ فيها
على علمه بفروع الفقه وطرق تنزيله على الواقع، مع نظرة أصولية مؤسّسة، وذات
أبعاد مقاصدية ومنهجية واعية¹.

¹ - المرجع سابق، ص(28).

² - المرجع سابق، ص(28).

³ - إجماعات القاضي عياض، مرجع سابق، ص(42 - 45).

⁴ - القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، مرجع سابق، ص(199).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
كلّ هذه المعالم وغيرها هي عبارة عن إشارات إلى مادة علمية مهمة تتيح
للباحث الوقوف على تمكّن القاضي عياض من علمي الفقه وأصوله، وإحاطته بهما
توسّعًا وعمقًا، إلى جانب مشاركته في علوم أخرى كان القاضي عياض على إلمام
ومعرفة بها كالحديث والتفسير وغيرها.

2 - بين أصول الفقه والبلاغة

نريد في هذا الموضوع من البحث أن نقف على المرحلة العلمية التي جعلت من
علماء أصول الفقه يوجهون أنظارهم إلى العلوم اللغوية، التي من بينها البلاغة
العربية، حتى جعلوا لبعض المباحث منها مكانًا محفوظًا في تصانيفهم، قبله بعضهم
ومارسه باعتباره جزءًا لا يتجزأ من علم الأصول، ورغب عنه بعضهم وعمل على
إخراجه منه مع جملة من المباحث التي تنمي إلى علوم لغوية وغير لغوية أخرى.
وقف العلماء أول الأمر على ضرورة استنباط الأحكام الشرعية من خلال
النصوص والأدلة القرآنية والنبوية وكلام السلف - رحمهم الله - ، وهي ما يسمى
عندهم بالأدلة التفصيلية، لكنهم رأوا أنه من غير السهل أن ينطق المفتي بالحكم
الشرعي اعتمادًا مباشرًا على الدليل التفصيلي، بل إن هذا النوع من أنواع الأدلة
الشرعية منه:

- متقدم في الزمن ومتأخر.
- متعارض - في ظاهره - مع آخر.
- خاضع لسياق قولي ورد فيه.
- حمال لأوجه متعددة من الدلالة.

¹ - انظر: القاضي عياض وولده، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تقلّم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، ط (2)، دار الغرب الإسلامي، (1997م).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي

- متفاوت الدرجة في الصحة والضعف من حيث السند أو المتن.

- خاضع لأوجه اللغة من مجاز وحقيقة ومشارك...

فلما كانت كذلك طبيعة الدليل الشرعي، كان متحتمًا على العلماء أن ينظروا إلى أصول كلية، تكون بمثابة الخيط الناظم والخلفية الثابتة التي تبنى عليها نصوص الشرع الجزئية، من جهة طرائق الأئمة المعترين في الفتوى في التعامل معها وتوجيهها، فتكون أصولًا مسعفةً للفقيه في النطق بالحكم في النوازل التي تعرض له، لأنه بسبب «الجهل بالأصول ضلّ كثير من الناس، فأحلوا الحرام، وحرّموا الحلال، ظننا منهم بأن معرفة الدليل التفصيلي كافية جهلاً وغروراً»¹.

وجد هؤلاء العلماء الذين ندبوا أنفسهم للبحث في هذه الأصول الكلية واستنباطها من كلام الأئمة المعترين في الفتوى، وجدوا أنفسهم أمام خطاب خاضع لسُنن العرب في كلامها، ومقاييسهم في تأويلها وتوجيهها، لذلك كان بحث الأصوليين يدور حول «أحوال الأدلة الموصلة إلى الأحكام الشرعية»²، ويدخل في جملة هذه الأحوال ما يتيح المجال اللغوي الذي يضمّها، وهذا المجال اللغوي الذي يجب على الأصولي أن يراعيه، يدخل فيه جملة من العلوم، يأتي على رأسها البلاغة.

وبالجملة، فهناك أمران يقوم عليهما علم أصول الفقه:

¹ - هيتو، محمد حسن، الوجيز في أصول التشريع الإسلامي، ط (1)، مؤسسة الرسالة، (2015م)، ص (22).

² - الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، (7/1).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي

- النظر في الأدلة الشرعية الجزئية وأحوالها وشروطها، وفي طرق تعامل العلماء المتقدمين معها.

- استنباط الأدلة الكلية والمحملة منها، مع مراعاة السياق والموضوع اللغوي الذي يضمها.

وهذا هو معنى كلام الأصوليين حين يقولون: إن استمداد علم أصول الفقه يكون من ثلاثة أمور، من بينها: العربية، يقول الآمدي (631هـ) موضحاً ذلك: «وأما علم العربية، فلتوقف معرفة دلالات الأدلة اللفظية من الكتاب والسنة وأقوال أهل الحل والعقد من الأمة على معرفة موضوعاتها لغة»¹.

ففي ذكرنا للقوانين اللغوية ما يجيل بالضرورة إلى العلوم اللغوية التي تشتغل بها، والتي تأتي البلاغة على رأسها، وما يعنى به من موافقة الخطاب اللغوي لمقتضى الفصاحة، ومراعاتها لوضوح الدلالة، واعتبارها لما يقتضيه الحال، ولذلك نجد الأصوليين يراعون هذا المعنى في تنصيبهم على وجوب الأخذ بشرائط علم البلاغة عند الاشتغال بالخطاب الشرعي، فقد جاء في حاشية العطار (1250 هـ) على «شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع»: «واشتراط معرفة البلاغة في المجتهد لا يخلو عن شيء لرجوعها إلى المخاطبات»².

إلا أن لفظة «المخاطبات» التي وردت في كلام السجاعي تشير إلى حقيقة أن الأصوليين لم تكن مؤلفاتهم مقتصرة على دراسة الألفاظ من جهة مكوناتها اللغوية وسياقاتها الكلامية فقط، بل إنما كان هذا لا يشكل إلا جزءاً من دراساتهم

¹ - المرجع السابق، (8/1).

² - العطار، حسن، حاشية على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، د ت، (2/422).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
الأصولية، لذلك يحسن التنبيه على أن العلماء الأصوليين إنما طرّقوا المباحث اللغوية
عامة، والبلاغية خاصة في قسم «الملفوظات» من أصول الفقه، دون غيره من
المباحث الأصولية المتعلقة بالسنة والقياس والإجماع ونحو ذلك.

إنّ من بين أشهر التقسيمات التي تداولها المعاصرون لعلوم الثقافة العربية
تقسيم محمد عابد الجابري لها إلى «علوم بيان» و«علوم عرفان» و«علوم برهان»،
فإنه وإن كان قد حمل عليه بعض الباحثين بسبب هذا التقسيم، باعتباره يضرب في
صبغة التكامل التي يتّسم بها التراث العربي، إلا أن ما ذهب إليه الجابري في أن جمّع
بين بعض العلوم من جهة تقارب مجال اهتمامها وتوحد إطار اشتغالها، يرى أمراً لا
يتنافى مع مبدأ التكامل بين العلوم، بقدر ما يرى فيها محاولة منه لتقريب القارئ
إلى طبيعة هذه العلوم العربية، وما تشترك فيه اهتمامات ومشاكل.

فالجابري عمد إلى جعل علوم مثل الصرف والنحو والبلاغة وأصول الفقه
منضوية تحت مسمى «علوم البيان»، وذلك حينما لمح أنها تجتمع إلى قصد واحد،
وهو البحث في بَيَانِيَّة الكلام العربي، حيث يقول الجابري: «إن البيان في اصطلاح
رواد الدراسات البيانية اسم جامع ليس فقط لكل ما به تتحقق عملية الإفهام أو
التبليغ، بل أيضاً لكل ما به تتم عملية الفهم والتلقي، وبكيفية عامة التبيين»¹، ثم إن
البيان ليس حكراً على علم البلاغة العربية دون غيره، فعلم أصول الفقه أيضاً كان
سباقاً إلى دراسة البيان، بل إن «البلاغيين الذين اتجهوا هذا الاتجاه كانوا آخر من

¹ - الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط
(9)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ص (14).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
ظهر على مسرح الدراسات البيانية، كما أن تصنيفهم ذاك لعلوم البلاغة لم يتقرر
بصورة نهائية إلا في مرحلة متأخرة¹.

فالبيان حقيقة يسعى إلى الاشتغال عليها جملة من العلوم التراثية من خلال
زاويتين اثنتين - حسب رأي الجابري - : «قوانين تفسير الخطاب» و«شروط
إنتاج الخطاب»، فكان عمل الجابري في دراسته «بنية العقل العربي» أن تتبع هذين
الأمرين من خلال ما زخر به التراث الإسلامي من مؤلفات، على حين تم فيه
رصدهما من خلال مرحلة «غير واعية» علمياً، أي في مرحلة درست فيها مباحث
البيان دون محاولة «ضبط أصولها ووضع قوانين لتفسير نصوصها»²، وذلك نحو ما
وصلنا من تراث ابن عباس (68هـ) - رضي الله عنه - في التفسير أو من بعض
الصحابة - رضوان الله عليهم -، ثم بعد ذلك بدأ التفكير الواعي يتطور مع مقاتل
(150هـ) وأبي عبيدة والفراء (207هـ) وغيرهم، إلا أن أياً منهم «لم يرتفع
بعملية «وضع قوانين لتفسير الخطاب - البياني القرآني» - إلى المستوى الذي قفز
إليه معاصروهم محمد بن إدريس الشافعي»³، ثم الجاحظ (255هـ) في عملية وضع
«شروط لإنتاجه».

فالناظر إلى موضوع أصول الفقه كما بينا آنفاً يقف على حقيقة أن هذا
العلم من محطات اشتغاله البحث في الكلام من حيث كونه «بياناً»، باعتبار البيان
«اسماً جامعاً لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى

¹ - المرجع السابق، ص (13 - 14).

² - المرجع السابق، ص (21).

³ - المرجع السابق، ص (22).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
يفضي السامع إلى حقيقته»¹، فتعامل الأصوليين مع كلام الله - عز شأنه - أو
كلام رسوله - ﷺ - أو كلام السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، هو عبارة
عن تعامل مع كلام مبین، من ورائه أغراض ومقاصد ومعان يروم الأصولي الكشف
عنها والوقوف على مقاصدها، لاستخلاص أدلة إجمالية منها وقوانين كلية تفسره
وتكشف عنه أولاً، وتكون بمنزلة العدة التي يواجه بها الفقيه نوازل الأحكام قياساً
عليها واستناداً على معطياتها في مرحلة ثانية.

3 - تكامل أصول الفقه والبلاغة في «بغية الرائد»

إنّ من أول ما يسترعي الناظر في مسائل علمي الأصول والبلاغة اشتراكهما
في مباحث عديدة، إن من حيث المادة العلمية في مسائلها وقضاياها أو من حيث
الطرائق والمناهج التي يسيران في ضوئها، ولذلك نرى بعض الأبحاث المعاصرة
تلتفت إلى هذا الجانب من بحث نقط التقاطع أو التقارب التي توجد بين علمي
البلاغة والأصول²، فلئن كان هذا التقاطع في المسائل العلمية من الملاحظ البادية
عند دارسي العلمين، فإن الذي من شأنه أن يطرح إشكالاً على الفهم، ويستدعي
أنظاراً تتجه إليه بالتأمل، هو عندما يقف الباحث أمام مسألة في العلم تدخل ضمن
اختصاصات علم الأصول، يقوم علم البلاغة بالبتّ فيها بدله، قائماً مقامه في
النيابة، ساداً مسده في العمل، وهو الأمر الذي وقفنا عليه في «بغية الرائد» للقاضي

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، د ت،
(11/1).

² - انظر مثلاً: لاشين، عبد الفتاح، البحث البلاغي في دراسات علماء أصول الفقه، دار الكتاب
الجامعي، القاهرة، (1999م)، وانظر كذلك: القرفة، فوزي إبراهيم، البحث البلاغي عند علماء أصول
الفقه، مجلس الثقافة العام، سرت، (2010م).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
عياض، وهو ما رأينا العمل على الكشف عنه في هذا الموضوع، وفيما يلي تفصيل
القول فيه.

حديث أم زرع الذي قام القاضي عياض بشرحه في كتاب «بغية الرائد» هو
حديث نسوة تذاكرن فيما بينهن عن أحوال أزواجهن، وكان من جملة هؤلاء
النسوة أم زرع، التي كان لكلامها المحل الأكبر من بين سائر النسوة اللاتي ذُكرن
في الحديث، وكان مدار كلامها على مدح زوجها أبي زرع، وما حباها به من
نعيم ورغد عيش، إلا أنه كان من أمره أن طلقها وتزوج غيرها، لكن أم زرع لا
تزال حافظة لفضله، وذاكرة لإكرامه إياها، فجعلت تذكر في الحديث أبا زرع
وأبناءه وبيته وخدمه وآنيته...، فلما فرغت عائشة من حكاية كلام هؤلاء النسوة،
قال لها رسول الله ﷺ، «كنت لك كأبي زرع لأم زرع».

فإذا كان قد اختلف كلام الرواة الذين وصل عن طريقهم حديث أم زرع
في مسألة ما إذا كان نص الحديث مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، أو موقوفاً على
عائشة رضي الله عنها، إلا أن كلمتهم قد اتفقت على أنه «لا خلاف في رفع قوله
في هذا الحديث: كنت لك كأبي زرع لأم زرع، وإنما الخلاف في البقية»¹.

قال القاضي عياض معلقاً على قوله - ﷺ - «كنت لك كأبي زرع لأم
زرع»²: «وفيه من الفقه أن المشبه بالشيء لا يتزل منزلته في كل شيء، والنبي ﷺ
قد شبه نفسه النفيسة في صحبة عائشة رضي الله عنها بأبي زرع، ومن فعل أبي

¹ - القاضي عياض، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق صلاح الدين بن أحمد
الإدلي، محمد الحسن أجانف، محمد عبد السلام الشرقاوي، ط (2)، منشورات وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (1395هـ=1975م)، ص (20 - 21).

² - المرجع السابق، ص (11).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
زرع معها الطلاق، فلم يكن لازماً، ولو أن رجلاً ذكر امرأة له قد طلقها فوصفها
لزوجة أخرى له بأوصاف كثيرة جيدة أو رديئة، ثم ذكر أنه قد طلقها، ثم قال
للأخرى وأنت مثلها، ولم ينو مثلها في الطلاق لم يلزمه الطلاق، وحمل على مراده
في التشبيه، لما فيه تقدم ذكره، ولم يلزمه طلاق حتى ينوي مثلها في الطلاق، أو
يكون لم يذكر شيئاً من الأولى سوى الطلاق، مثل أن يقول: فلانة طالق أو قد
طلقتها أو فلان طلق زوجه فلانة، ثم يقول لزوجة له أخرى، وأنت مثلها، فهذا
يلزمه الطلاق نواه أم لم ينوه إذا قامت عليه باللفظ بينة، إذ لا احتمال لقوله سوى
إلزام الطلاق¹.

إن قول النبي ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع» جاء ضمن أبواب
عقدها القاضي لأجل الحديث عن الفقه المستفاد من حديث أم زرع، والغاية من
ذلك هو بيان بعض الأحكام الفقهية المستنبطة من الحديث، فلذلك تكرر في هذا
الباب قوله «وفيه من الفقه كذا»، ثم إن حكم «لا يقع الطلاق» كان مستنداً على
قاعدة الأغلب في مثلها أن تكون مستقاة من علم أصول الفقه، المبني على الأدلة
الشرعية الإجمالية، لكننا نلجده يؤصل لحكم فقهي صرف، بناء على قاعدة بلاغية
تنمي إلى باب التشبيه، وهي أن «المشبه لا يتزل متزلة المشبه به في كل شيء».
من القواعد التي يذكر علماء البلاغة أثناء تعرضهم لمبحث التشبيه بعد أن
يوردوا معناه وأقسامه وأمثلة كل قسم، يذكرون قاعدة بلاغية تنص على أن المشبه
بالشيء لا يتزل متزله في كل شيء، لأنه لو كان كذلك لكان هو هو، قال قدامة:
«إذ كان الشئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا، فصار

¹ - المرجع السابق، ص (183 - 184).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي

الإثنان واحداً¹، ويقول ابن رشيق: «التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه»².

والملاحظ من خلال هذا الكلام أن هذه القاعدة تستجيب للمنطق العقلي قبل أن تخدم النص الأدبي، ذلك أن تشبيه شيء بشيء لا يكون في كليته بل في بعضه، وهو ما جمع بين المشبه والمشبّه به، ولو اتحدا في كل تفاصيلهما لكانا شيئاً واحداً، فإذا قال الرجل «زيد كالأسد» لم يخطر ببال أحد أن ذاته هي ذات أسد وصورته هي صورته طباقاً، بل تشبيهه به يحيل على أنه يشترك معه في بعض صفاته لا في جميعها، ومنه فهي قاعدة كلية زكاها المنطق العقلي قبل أن يستعملها العلم، فمن المحال أن تجد تشبيهاً يخلو من هذا المعنى.

إنّ القاضي عياضاً يريد أن يبيّن الحكم فيمن تلفظ بقول «أنت مثلها» - على ما ذكر في كلامه من التفصيل -، هل يقع به الطلاق أم لا، فكان أن رجع إلى البنية اللغوية وما تفيده وتوحي به من معنى بلاغي مستمد من مبحث في التشبيه، قاعدته مفادها: «أن المشبه بالشيء لا يترل منزلته في كل شيء»، فهذه قاعدة محكمة في الخطاب اللغوي الذي جاء في صورة النص النبوي، راعاها القاضي عياض وبنى على إثرها - معتبراً إياها دليلاً معتبراً - حكماً شرعياً مفاده أن هذا القول لا يقع به الطلاق، فهذه القاعدة البلاغية نابت بالأصالة على قاعدة أصولية،

¹ - قدامة، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط (3)، مكتبة الخانجي، (1978م)، ص (109).

² - ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط (5)، دار الجيل، (1401هـ=1981م)، (286/1).



من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
وسدّت مسدها باعتبارها دليلاً كلياً يمكن أن ينطبق على سياقات ومواقف مختلفة،
ما دام أن ما تعلق به يدخل في دائرة اللغويات أو المخاطبات.

نرى من خلال هذا المثال الذي أورده القاضي عياض أن التكامل بين علمي
أصول الفقه والبلاغة العربيين يأخذ منحى من التجلي، هو صورة عن الاشتغال
الذي عمل فيه مبحث من علم البلاغة على أن ناب على قاعدة أصولية في العمل،
استدعى توظيفها ما نزل منزلة ما يعرض للفقيه من نوازل الأحكام الفقهية، وإنما
كانت عبارتنا عن هذا بـ«ما نزل منزلة»، لأن القاضي لم تعرض له النازلة الفقهية
حقيقة، وإنما افترضها افتراضاً، وذلك أثناء مدارسته لحديث أم زرع من جانب
الفقه فيه، ويمكن للباحث أمام صنيع القاضي عياض هذا أن يسم هذا المنحى من
التكامل بين البلاغة والأصول بـ«التكامل النيابي»، وذلك لما ناب المبحث البلاغي
عن قاعدة أصولية في الاشتغال، وسد مسدها في الوظيفة المنوطة بها.

إن انتماء علمي الأصول والبلاغة إلى مجال معرفي جامع وسمه بعض الباحثين
بـ«البيان العربي»، هو الذي سوّغ وجود ظاهرة التكامل بين العلمين، غير أن أبرز
ما ركّز عليه البحث هو الكشف عن طبيعة هذا التكامل، كما تجلّى في صورة من
صوره التي وظفها القاضي عياض في مصنّفه، ولا يدعي الباحث أن هذه الصورة
منحصرة فيما مثّل به، بل هناك صور أخرى لهذا التكامل بين العلمين، عند القاضي
عياض في كتابه «بغية الرائد»، وفي غيره من مدونات الثقافة العربية والإسلامية،
من كان لأصحابها مشاركة في جملة من العلوم والمعارف، كان موضوع التكامل
بين العلوم في صدارة ما ينتج عن هذه المشاركة، على وجه الضرورة.

ثبت المصادر والمراجع

1. ابن القاضي عياض، التعريف بالقاضي عياض، تحقيق محمد بن شريفة، ط
- (2)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (1982م).



- من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
2. ابن بشكوال، الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط (1)، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت (1410هـ = 1989م).
 3. ابن رشيقي، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط (5)، دار الجيل، (1401هـ = 1981م).
 4. ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمد أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، دت.
 5. الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.
 6. بنوار، محمد، القاضي عياض وأثره في الدراسات الأصولية، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، (1995م).
 7. الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، ط (9)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.
 8. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، دت.
 9. السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه نعيم زرزور، ط (2)، دار الكتب العلمية، بيروت، (1407هـ = 1987م).
 10. شواط، الحسين، القاضي عياض عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، ط (1)، دار القلم، دمشق، (1419هـ = 1999م).
 11. الصغير، عبد المجيد، مقال: إشكالية مفهوم التكامل المعرفي في الإسلام: بنيتها وتحليلاتها، مجلة الواضحة، العدد (6)، (1432هـ = 2011م).
 12. العطار، حسن، حاشية على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، دت.



- من صور التكامل بين علمي أصول الفقه والبلاغة العربية ----- د. البشير العوي
13. العمري، صالح، إجماعات القاضي عياض في الفقه الإسلامي، دكتوراه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، (1418هـ = 1998م).
14. القاضي عياض وولده، مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام، تقديم وتحقيق وتعليق محمد بن شريفة، ط (2)، دار الغرب الإسلامي، (1997م).
15. القاضي عياض، الغنية: فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، ط (1)، دار الغرب الإسلامي، (1402هـ = 1982م).
16. القاضي عياض، بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، تحقيق صلاح الدين بن أحمد الإدلي، محمد الحسن أجانف، محمد عبد السلام الشرقاوي، ط (2)، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، (1395هـ = 1975م).
17. قدامة، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، ط (3)، مكتبة الخانجي، (1978م).
18. القرقة، فوزي إبراهيم، البحث البلاغي عند علماء أصول الفقه، مجلس الثقافة العام، سرت، (2010م).
19. لاشين، عبد الفتاح، البحث البلاغي في دراسات علماء أصول الفقه، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، (1999م).
20. ملكاوي، فتحي حسن، منهجية التكامل المعرفي: مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (1434هـ = 2012م).
21. هيتو، محمد حسن، الوجيز في أصول التشريع الإسلامي، ط (1)، مؤسسة الرسالة، (2015م).